في ظلال عرش الله

(5)رجل تصدق بصدقة فأخفاها

أولا ماهي الصدقة ؟

الصدقة هي :ما يعطى للفقير على وجه التقرب إلى الله تعالى، سميت بذلك لأنها تدل على صدق إيمان صاحبها، وتصديقه بوعد الله على ما وعد من جزاء وعوض كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "والصدقة برهان"

والصدقة هي إخراج جزء من المال من يد المتصدق وأي إنسان يخرج شيئا من ماله يخرجه بمقابل ،والمتصدق يخرج من ماله بدون مقابل ممن أنفق عليه ؛فما الدافع لذلك ؟

إنما دفعه لذلك صدق إيمانه بوعد الله كما قال تعالى : " وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى " الليل (19:21)

فالمتصدق إنما يتعامل مع الله لا مع المساكين أو كما هو حال الناس مع

الضرائب فقد يكذب أو يزور في أرباحه ليدفع أقل قدر ممكن من الضرائب ، أما المتصدق فهو إنما يعامل الله الذي يعطي الكثير على القليل فهو يجتهد أن يعطي أكثر مما وجب عليه لا أقل .

والصدقة هي الزكاة والزكاة هي الصدقة يفترق الاسم ويتفق المسمى.
والمشهور إطلاقها على التطوع فقط ولكن الصحيح شرعاً أن الاثنان بمعنى واحد لقوله تعالى " :خذ من أموالهم صدقة "التوبة 103 و إنما الصدقات للفقراء { التوبة 60
والمقصود من قوله : "رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه "حتى لا يعلم من حوله بنفقته ، لدرجة أن لو كانت الشمال تعقل ما علمت شيئا عما أنفقته اليمين (وهذا يسمونه في اللغة بالمجاز) فهو يخفيها عن جوارحه فكيف بالناس؟ "!

وبعض الناس لم يفقه الحديث فكان إذا أراد أن يتصدق أدخل يده اليسرى في جيبه ثم أدخل المال يمده هكذا يظن أن الشمال تنظر إلى اليمين فحينئذ يخبئها في جيبه ، وليس هذا هو المقصود، إنما المقصود أن صدقته خفية لا يعلم بها الناس، يتحرى فيها أوقات السر، ولا يريد الإعلان بها.
فخير الصدقة ما كان سراً لوجه الله جل وعلا.
هب أن الناس علموا بصدقتك هل يقبلونها منك؟
هل يرفعونها إلى السماء؟

هل يخرجونك من النار؟

هل يدخلونك الجنة؟

وهب أن الناس لا يعلمون!!!

إن عدم علم الناس أقرب إلى إخلاصك وأتقى لقلبك، وأقرب منك إلى ربك، وأدعى إلى ثباتك، وأحوط ألا يصيبك العجب فيما أنت فيه،

وقال بعض أهل العلم: يحتمل أن يكون هذا رجل يشتري من فقير متكسب فيعطيه أكثر من سلعته، أو يقصده بالشراء لكي يعينه على أسباب الكسب.

مثال ذلك: أنت حينما تعرف رجلاً فقيراً أو مسكيناً ويبيع سلعة من السلع بعشرين ، فتشتري منه واحدة بثلاثين ًوتذهب، أنت بهذا تعينه على الاستمرار في الكسب، واشتريت منه إعانة له، وما زاد عن قيمة السلعة هو صدقة، وهذا من أفضل أنواع الصدقة أيضاً، هو من خير ما يتصدق به العبد بإذن الله جل وعلا.

ومن الصدقة المخفية إنظار المعسر

إنظار المعسر من مكارم الأخلاق، وأفضل منه التجاوز عنه، أو عن بعض دينه ، قال الله تعالى: (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) البقرة/280.

وعن أبي اليسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من أنظر معسراً أو وضع عنه، أظله الله في ظله)أخرجه مسلم

(أنظر معسراً)أي أمهله

الصدقة بين الإسرار والجهر

إخفاء الصدقة حين تكون تطوعاً أولى وأحب إلى الله ؛ وأجدر أن تبرأ من شوائب التظاهر والرياء.

فأما حين تكون أداء للفريضة فإن إظهارها فيه معنى الطاعة ، وفشو هذا المعنى وظهوره خير . . ومن ثم تقول الآية": إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ" البقرة:271.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع، لان الاخفاء فيها أفضل من الإظهار، وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل في تطوعها لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات.

قال الحسن: إظهار الزكاة أحسن، وإخفاء التطوع أفضل، لأنه أدل على أنه يراد الله عز وجل به وحده.

وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الاشياء كلها.

وفى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة"

وذلك أن الفرائض لا يدخلها رياء والنوافل عرضة لذلك.

وفى الحديث: " صدقة السر تطفئ غضب الرب ."

إذن فالجهر يكون أفضل في عدة حالات:

1- أداء فريضة الزكاة وإعلانها كشعيرة من شعائر الإسلام

وهذا مستفيض من حال الصحابة مع رسول الله في أدائهم الزكاة فعن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : اللهم صل على آل فلان . فأتاه أبي بصدقته ، فقال : اللهم صل على آل أبي أوفى . رواه البخاري ومسلم.

2- المصلحة العامة للمسلمين كالنفقة في سبيل الله أو بناء مسجد أو مدرسة أو مستشفى ...الخ

وهو الظاهر من النصوص أن الإعلان عنها أفضل إذا كان الأمر يتعلق بمجموع المسلمين من باب التنافس على الخير والمسابقة للخيرات كما في غزوة تبوك حينما دعا النبي صلى الله عليه وسلم للإنفاق ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله ، واستجاب الصحابة رضوان الله عليهم ، فأنفق كل حسب مقدرته.

وكان عثمان صاحب القِدْح المُعَلَّى في الإنفاق فهذا عبد الرحمن بن حباب يحدثنا عن نفقة عثمان حيث قال: شهدت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله .

ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله.

ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله.

فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول:"ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه" سنن الترمذي

وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنهما قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي صلى الله عليه وسلم جيش العسرة، قال: فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها بيده ويقول: "ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم ـ يرددها مرارًا ـ " مسند أحمد

وأما عمر فقد تصدق بنصف ماله وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك, وهذا الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك حيث قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي, فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا،

فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"ما أبقيت لأهلك؟" قلت: مثله.

قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدا.

وروى أن عبد الرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العسرة .

3- فتح باب الخير بالتنافس على الإنفاق حينما يكون الأمر متعلقا بكفالة بعض المنكوبين من المسلمين

كما في حديث جرير وهذا مثل الذي تقوم به بعض الهيئات والجمعيات الخيرية من كفالة الأيتام ومساعدة الفقراء والمعوزين ،وضحايا المذابح والحروب كما في ... نسأل الله أن يرفع عنهم البلاء وأن يحقن دماء المسلمين في كل مكان.

عن جرير بن عبد الله قال : كنا في صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه قوم عراة مجتابي النمار (جمع نمرة ، وهي : كساء من صوف مخطط ، لابسيها قد خرقوها في رؤوسهم) متقلدي السيوف ، عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر : فتمعر(تغير) وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة : فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام ، فصلى ثم خطب : فقال : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) إلى آخر الآية : (إِنَّ

اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) (النساء:1) ، والآية الأخرى التي في آخر الحشر : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) (الحشر:18)

تصدق رجل من دينارِه ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشق تمرة) فجاء ، رجل من الأنصار بصرّة (بتشديد الراء) كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مذهبة (يشبه الذهب من الفرح) ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) . رواه مسلم.

4- الإظهار ترغيبا للناس في الاقتداء وخاصة ممن يقتدي بهم من أهل العلم والفضل :

وسن السنة الحسنة ليقتدي بها فيهتدي، وفي صحيح مسلم من حديث جرير بن عبد الله: "من سن سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء."
وقد أمر الأنبياء والرسل بالإظهار للطاعات؛ لأن الله تعالى جعلهم أسوة لأتباعهم، كما قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} الأحزاب:.21

ومثل الأنبياء: خلفاؤهم وورثتهم من العلماء والدعاة والصالحين، من كل من يقتدي به.

ولا ننس أن الله أثنى على المنفقين سرا وعلانية فالعبادة بالإنفاق تكون علانية كما تكون سرا قال تعالى : "الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً" البقرة الآية .274

وقال علي رضي الله عنه: "تصدقت بدرهم في ليل وآخر في النهار، وبدرهم سرًا، وآخر علانية، عملاً بالآية."

قال الغزالي معلقا على الآية : ندب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذي فيه فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فقد يكون الإعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال.

ودائما التنافس على الدنيا يولد في النفوس البغضاء والحقد ويشيع التحاسد والضيق في الصدور ، أما التنافس على الآخرة فإنه يسبب السمو الروحي والرقي بالنفس والحب بين الجميع فأنا حينما أرى فلانا وقد أنفق كذا وكذا من ماله أحبه في الله وتتطلع نفسي إلى تقليده ،

وملمح آخر لقد رأيت من يحضر ليشاهد فقط فلا يخرج إلا وقد أنفق من ماله الكثير حرك فيه ذلك رؤيته للمنفقين فلو أن رجلا أو امرأة حضر حفلا لجمع التبرعات وكانت نيته أن ينفق مائة فإذا به يرى من ينفق عشرة ألاف فتسمو نفسه إلى الزيادة فيستقل المائة بعد أن كان يراها كثيرة ، بل ويزيد عليها.

وقد لاحظنا أن كل المساجد والمراكز الإسلامية والمدارس الإسلامية في شمال أمريكا وأوربا وغيرها إنما تم من جيوب المسلمين من خلال تنافسهم على الخير بالإنفاق الجماعي علانية

متى يكون الإخفاء أفضل ؟

الإخفاء يكون أفضل في حالات:

1- إذا كان متعلقا بشخص بعينه

لأن ذلك ألطف به ومراعاة لشعوره وفي الإظهار هتك ستر الفقير وهذا هو المفهوم من قوله تعالى: (وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) (البقرة:271)

خاصة إن كان من المستورين المتعففين الذين وصفهم القرآن بقوله: "يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافًا "البقرة: من

الآية .273

قال الغزالي: وقد بالغ في الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطي (يعني من خلال وكيل)

وكان علي زين العابدين كثير التصدُّق على فقراء المدينة ، لا سِيَّما التصدُّق في السِّر ؛ وجاء في كتاب (الحلية) أنه كان يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل ، فيتصدَّق به ، ويقول : (إنَّ صَدَقة السِّرِّ تُطفِئُ غَضَب الرَّبِّ عَزَّ وَجلَّ)

فلما توفي تَبيَّن أنه كان يُعيلُ مِائة عائلة من عوائل المدينة ، وكان أهل المدينة يقولون : ما فقدنا صَدَقَةَ السر حتى مات علي بن الحسين.

2- إن رأى من نفسه تطلعا إلى ثناء الناس وحمدهم له :

وخصوصا إذا خشي على نفسه الرياء، والفتنة بمحمدة الناس فالإخفاء أولى ، والواجب عليه أن يفتش عن دخيلة نفسه، ويحترس من خداعها، فإنها أمارة بالسوء، خداعة غرارة، وليحذر ما استطاع من الرياء، فربما كان هناك رياء في

غاية الخفاء، يتسلل إليه، وهو لا يشعر، فيحبط عمله، وهو يحسب أنه يحسن صنعا، وهنا لا بد له من الاستعانة بالله جل وعلا، والبراءة من الحول والقوة، واللجوء إلى حول الله سبحانه وقوته، ومن الدعاء المأثور: "اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه."

قال الغزالي : "ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال، وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال وكل واحد منهما مهلك في الآخرة "

ومن علامات الإخلاص : أنك لا يختلف عملك ، وأنت في ملأ ، أو أنت وحدك.

وقال بعض العلماء " : الإخلاص أن تكون الحركة والسكون في السر والعلانية لله تعالى. "

قال: شيخ الإسلام" :مَن عَبَدَ الله وأحسن إلى الناس فهذا قائم بحقوق الله وحق عباد الله في إخلاص الدين له، ومن طلب من العباد العِوض ثناءً أو دعاءً أو غير ذلك لم يكن مُحسناً إليهم لله."

وكان أكثر دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا".

وإذا أخلصت في العمل ثم أثنى عليك الخلق وأنت غير متطلع إلى مدحهم فليس هذا من الرياء، إنما الرياء أن تزين عملك من أجلهم.

سُئل النبي عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال:

(تلك عاجل بشرى المؤمن) رواه مسلم.

وأخيرا أذكر نفسي وإخواني بهذا الحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً" متفق عليه.

نسأل الله اليقين بأن ما أنفقنا خير مما أمسكنا وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل والسر والعلن إنه على كل شيء قدير.